

معالي السادة أيها الاخوة في الإسلام

أود أن أعبر لكم في البداية عن بالغ الشكر و الامتنان لتشريفكم لمسجد باريس الكبير و لي شخصيا من خلال هذه الدعوة الكريمة التي وجّهت إلينا من الجمهورية الإسلامية لأوزباكستان و خصوصا لحضور هذا اللقاء في العاصمة طاشقند التي تتبوأ مكانة مرموقة في قلوب المسلمين في العالم كله.

إن طاشقند و سمرقند و بخارى لتعتبر جواهر نفسية في مجال الفنون و الثقافة و كل المعارف العالمية و الدينية في الإسلام .

فمع تيمورلنك "1328-1415" عرفت إمبراطورية ما وراء النهر مع طاشقند و سمرقند كعواصم اكبر اتساع عرفه العالم الإسلامي إذ انه كان يمتد إلي الصين و من الهند إلى الأناضول في الشرق و إلي سوريا في الغرب , فبفضله أصبحت أهم مدن بلاد ما وراء النهر مراكز عالمية في مجال الفنون المختلفة بعد سقوط بغداد 1258.

إن هذا الإمبراطور الذي كان اعرج من كسر في خاصرته يعرف في الغرب باسم "تاميرلان" يعد في بلاد ما وراء النهر و في العالم كله من اقوى الملوك في عصره . فباستيلائه على بلخ و سمرقند و خوارزم في إيران قد اسهم في إشعاع فريد من نوعه و تطور شتي العلوم و الفنون و الفكر في الإسلام و من هذه الناحية فإن بلاد ما وراء النهر و طاشقند بصفة خاصة تكتسبان أهمية كبرى في الذاكرة الجماعية للمسلمين كافة و الحضارة الإنسانية عموما.

إن طاشقند و التي يسميها بعض الكتاب العرب بلاد الشاش علي مجمع النهرين - سيرداريا- قد ذكرت في عدة مؤلفات فابن الأثير يذكر انتصار الإسلام و دخوله في كل منطقة آسيا الوسطى سنة 751 م و انتصاره على نظام كوشى الإمبراطور الصيني.

و من جهة أخرى فإن البيروني و الطبري يذكران تاريخ طاشقند و يقرر البيروني إن هذه المدينة بنيت على انقاض المدينة القديمة- بنخات- المعروفة منذ عهد الحلفاء العباسيين في القرن الثامن و يعتبر النيسابوري و خاصة الشاشي من أكبر علماء المذهب الشافعي في عصرهما و نذكر أيضا مشاهير المحدثين و على رأسهم الإمام البخاري والإمام مسلم ، و كذلك الترمذي المولود في القرن الثالث الهجري [ 835م ] تقريبا بمدينة ترمذ و الذي قضى حياته كلها لدراسة القرآن الكريم و دعا إلى السنة النبوية و الذي رفض تعاطي علوم الفلسفة و الكلام و دعا إلى التمسك بالشريعة و يلقب عند المسلمين بالحكيم ، كان له علم واسع بالكيمياء و فلسفة أفلاطون و أرسطو و فيتاغورس.

و قد نحا في حياته طريق الذكر و تكلم كثيرا عن الميثاق الأزلي و ينصف رجال الذين وفق مقامات مختلفة :

كرام ، صديقون ، و مفردون و في قمة الهرم يذكر من يتبوءون مقام ختم النبوة الذي أكرم الله به كبار المتصوفة. و للحكيم الترمذي أثر كبير واضح على كبار المتصوفة المسلمين كالشيخ عبد القادر الجليلي و محي الدين ابن عربي.

و لد الإمام محمد بن إسماعيل البخاري سنة 810م ببخاري و يعتبر مفخرة الإسلام من خلال كتابة " صحيح البخاري " و يعتبر مرجعا أساسيا في السنة يستغنى عنه في معرفة الأحاديث النبوية. و تذكر الروايات أن جمعه لما يزيد عن ستمائة ألف حديث. كان لا يتم إلا بعد الوضوء و صلاة ركعتين و يعتبر كتابه في الحديث مع كتاب مسلم النيسابوري المرجع الأساسي و الأول و قد توخيا في كتابيهما الدقة و التحقيق في دراسة الأسانيد.

أما في العلوم التجريبية فإن الإمام موسى الخوارزمي يعتبر من أعظم علماء الإسلام و هو الذي اخترع علم الحساب الجبري و غيرها من الاختراعات في مجال الرياضيات و في مجال الطب كان لابن سينا تأثير واضح لقرون عدة و قد ولد سنة 980 م بالقرب من بخارى و من أشهر مؤلفاته كتاب القانون في الطب. ولكن الفضل يرجع على وجه الخصوص إلى ألوبك- حفيد تيمورلنك- الذي كان سببا في حركة فنية و أدبية تركت بصمات واضحة في النصف الأول للقرن الخامس عشر بسمرقند و حيرة و أعطى لهذه اسم النهضة التيمورية المعروفة في الحضارة الإسلامية.

و نذكر أيضا عمر الخيم الذي ولد في بيهق و هو من أشهر علماء الرياضيات و الشعراء و الفلاسفة نيسابور. و يذكر لنا النظامي و القزويني كثيرا من التفاصيل عن حياته المملوءة بالمغامرات في عصر حسن الصباح و هو مؤسس الحشاشين و الذي التجأ- حفاظا على حياته إلى جبل أملت و ولد عمر الخيم سنة 1048م و توفي في 1128م.

و قد ترك عمر الخيام تراثا هاما و مؤلفات في غاية الإبداع فقد اخترع كعلم رياضي المعادلة من الدرجة الثالثة و له كشاعر رباعياته المشهورة و التي ترجمت إلى الانكليزية بأكسفورد جامعة كمرج من طرف فيتجيردا لد من الرومانسيين الأوربيين ككولف جونج و غوته الذين كانت لهم جراية بأشعار الحافظ الشيرازي و السعدي.

لقد كتب ملاحظات فلكية في مرصده الفلكي حول حركة الشكس و القمر و النجوم. و قد ترك قواعد أساسية عامية في الحساب تفوق قاعد بطليموس الاسكندري و التي أثرت في الفكر الأوربي من خلال علمائه كبلير و كبرنيك.

و يجدر بنا أن نذكر في هذه المرحلة أيضا بعض العلماء الآخرين كحسن شلبي و جمهشيد و أبو عبد الله البتاني و كذلك الفلكي سند بن علي و المؤرخ موسى بن شاكر و العلم المروردي.

و تعتبر مدارس طاشقند و بخارى و سمرقند في بلاد ما وراء النهر من أشهر المدارس و خاصة في أوزباكستان حيث يحتفل في عصرنا هذا بهذه العلوم و الدراسات الدينية و كذلك الفنون التي تأثرت بها بالحضارة التيمورية.

و يذكر لنا ابن خلودون الذي كان من سجناء تيمورلنك عجائب هذه المرحلة 1392 حيث يظهر التأثير الإيراني و التركي و الهندي في تحقيق أبداع الأعمال الفنية العربية في مجال الهندسة و الفسيفساء و الأعمال الفنية الزيتية و الأدب.

إن الملحمة الوطنية الإيرانية و التي تسمى شمهام قد توجت بأوسمة الشرف و دخل من خلالها تيمورلنك في هذه المرحلة التاريخية حيث جمع ما بين بلاد ما وراء النهر و كل المسلمين في المناطق المجاورة و بهذا سجل نفسه في التاريخ كرجل وفاق و سلام و رجل عظيم من عظماء الإسلام في سبيل الدين. و يمكن أن نذكر من ضمن أعمال التراث العالمي لبلاد ما وراء النهر مرصد ألف بك المشهور بسمرقند و كذلك ضريح تيمورلنك بنفس المدينة والقصور العظيمة البديعة من الزليج المهيب من الطين المصهور المزين بالنجوم ذات ثمانية رؤوس على شكل فسيفساء و التي تعتبر بصفة نهائية السمة الأساسية للفن الإسلامي المعروف بالزليج.

إن حركة العمران أيضا تتمثل في بناء المساجد الرائعة بالفسيفساء المتعددة الرؤوس كالمسجد الجامع ببخارى و طشقند و سمرقند و التي أعيد ترميمها إبان العهد السوفياتي و يمكن أيضا إن نلاحظ في الحركة العمرانية أضرحة رائعة و أعمال فنية من خلال السواري الرخامية كما هو الحال في مسجد علي النفسي أو قور-إيمير. و شاهي زند بسمرقند و التي تظاهي في جمالها مدارس ألوبك في كثير من عواصم المنطقة و خاصة في بخارى.

إن هذا الطراز المعماري المدهش و الضخم المزخرف بالفسيفساء المتعددة الرؤوس و الألوان المختلفة كالأصفر و الأزرق الأزولي الأفغاني تعتبر من التراث الفني و الثقافي العالمي.

و نظيف كلمة أخيرة حول فن الطباعة المتطور منذ العهد التيموري و يخص فناني بغداد و تبريز و طشقند و سمرقند و يمكن أن نذكر أيضا مؤلفات الجنيد المتعلقة ببعض القطع الصغيرة المطلية و المشهورة علميا و كذلك الإنجازات الفنية لفناني شيراز في كتاب الخانا أو منطقة الحيرة و التي أدخلها بأى سنغر أحد أحفاد تيمور لنك و في الختام فإن منطقة ما وراء النهر و على الخصوص منطقة أوزباكستان أثرت بصفة فعالية في الحضارة و الفكر الإسلامي في كل العصور و يظهر ذلك من خلال مؤلفات العلماء و إبداعات الفنانين و الشعراء الذين تمكنوا من صهر هذه النماذج الثقافية المختلفة الهندية و العربية و الإيرانية و التركية. و لكن خصوصية طشقند و بخارى و سمرقند تعد بلا منازع مفخرة الحضارة الإسلامية.

و يبقى من الواجب على كل مسلم مثقف يعتز بانتمائه إلى هذه الحضارة أن يزور هذه المذن و يتأمل في هذا التراث الزاخر عرفانا لهؤلاء الأعلام بالجميل الذي أسدوه إلى الإسلام و إلى الحضارة الإنسانية عموما و يطلع على نسخة المصحف العثماني المحفوظة فى طشقند العاصمة الحالية لدولة أوزباكستان.

وأخيرا أتمنى لكم التوفيق و النجاح في أعمالكم وأشكركم على حسن انتباهكم.

و السلام عليكم و رحمة الله تعالى وبركاته.